

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

رياض الصالحين - الدرس : 091 - باب تحريم الكبر والإعجاب - ما الذي يحجب العبد عن ربه؟ وكيف يرفع هذا الحجاب؟ وما أنواع الافتقار إلى الله؟ وما عاقبة المتكبر يوم القيامة؟

12-09-1999

الحمد لله رب العالمين, والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين, اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم, اللهم علمنا ما ينفعنا, وانفعنا بما علمتنا, وزدنا علماً, وأرنا الحق حقاً, وارزقنا اتباعه, وأرنا الباطل باطلاً, وارزقنا اجتنابه, واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه, وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

مشكلة يعاني منها الإنسان هي :

أيها الأخوة الكرام, في هذا الدرس أحاول أن أضع يدي على مشكلة, يعاني منها كل إنسان .
الحقيقة: أن الحالة النفسية للإنسان أساسية جداً في معاملة الله له، هذا يؤكد قول الله عز وجل:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

[سورة الشعراء الآية: 88-89]

فالإنسان أحياناً: يجد الطريق مغلقاً، والأمور معسرة، والمسعى مخفياً، والعقبات كؤوداً، ينبغي أن يسأل: لماذا؟ ولا سيما وأن الله عز وجل يقول:

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَّنْتُمْ﴾

[سورة النساء الآية: 147]

أي: أن هناك شيء داخلي هو سبب هذا التعسير, شيء داخلي هو سبب هذا الإخفاق, شيء داخلي هو سبب هذا المسعى غير الموفق, الله عز وجل بيده كل شيء, وخلقنا ليسعدنا، فلماذا هذه المشكلات؟ .

موطن خطير :

أيها الأخوة, الحالة النفسية التي أساسها العقيدة الصحيحة, موطن خطير في علاقتك مع الله، حينما يعتز الإنسان بنفسه يؤديه الله عز وجل، حينما يستكبر ينزله الله عز وجل، حينما يعزو النجاح إلى ذاته يفشله الله عز وجل، هذه أمور خطيرة جداً .

كنت أقول لكم دائماً: إن الإنسان قد يخطئ، ولكن هناك خطأ لا يُغفر، خطأ الكبر لا يغفر، خطأ العُجب لا يغفر، لأنه حجاب .

((لو لم تذبذبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك، ما هو الذي أكبر من الذنب؟ العجب العجب))

والإنسان من ضعفه، أنه إذا نجح، إذا قوي، إذا اغتنى، إذا نال شهادة، إذا أتى عليه الناس، فقد يغتر .

ما موضع الشاهد في هذه القصة؟ :

حدثني أخ -والله- أحبه وأقدره، قال لي: دخلت إلى تعزية -هو يقطن في بعض الأقبية التي حول دمشق، لكن دخل إلى تعزية، يبدو أن الحاضرين من علية القوم، مستواهم رفيع، وهو يظن نفسه غير معروف، فإذا بصاحب العزاء يقدّمه لإلقاء كلمة، فقال: تهيّيت هذا الموقف تهيّياً شديداً، وأحجمت، ثم توكلت على الله، ودعوت الله عزّ وجل، أن يلهمني الصواب .

قال لي: وقفت، فإذا بي أتكلّم بكلام، أنا لا أستطيعه؛ كلام دقيق، عميق، مدلّل، لغة فصيحة، طلاقة، سيولة، انسياب، قال لي: أدهشت الحاضرين، قال لي: والله أنا لا أصدق أن أقول هذا الكلام، أنا حينما دعيت لإلقاء كلمة وجلت، وخفت، وظننت أنني لا أستطيع، ودعوت الله عزّ وجل أن يوفّقني، فاستجاب الله لي وأمدني، قال لي: وجدت نفسي في وضع جيد جداً .

سألته في اليوم الثاني حتى يدعوني لإلقاء كلمة ثانية، جاء في اليوم التالي، قال لي: أنا أنتظر أن يقال لي: تفضّل واخطب، يبدو أنه قيل له: تفضل، أخذت مكاني، ورفعت اللاقط، وتهيّأت لألقي كلمة كالماضية، قال لي: يا خيبة الأمل، قال لي: كلام لا معنى له، متناقض، غير متماسك، الأدلّة ضعيفة، الآيات أخطأت فيها، الأحاديث نسيته، قال لي: شعرت بالخزي، وقال لي واحد: ليتك لم تقل هذه الكلمة، لأنك هبطت .

هذا الشيء طبيعي، باليوم الأول افتقر إلى الله فأمدّه الله، في اليوم الثاني صدّق أنه خطيب كبير، فلمّا تصدّى لإلقاء هذه الكلمة، واستغنى دون أن يشعر عن الله، استغنى عن الله، فتخلّى الله عنه .

أرأيت إلى هذه القصة؟ هذه تتكرّر مع كل إنسان كل يوم عشر مرات، لكن ليس بإلقاء كلمة، بل بشكل أو بآخر؛ بتجارتك، بصناعتك، بوظيفتك، باختصاصك، بخدماتك .

كيف حلت المشكلة في هذه القصة؟ :

أخ كريم -والله- أحبه وأقدره، قال لي: أنا لي اختصاص نادر في البلد، دُعيت إلى إصلاح آلة فطلبت مبلغاً، فرآه صاحب العمل كبيراً، قال لي: ساومني وأطال المساومة حتى أضجرتني، فقلت له: أنا لست بحاجة إليك، أنت بحاجة إلي، فإن شئت هذا المبلغ، قال لي: انصاع، قال لي: أنا بالعادة أصلح الآلة بربع ساعة، نصف ساعة، ساعة، جلسنا أول يوم أول ساعة، الثانية، الثالثة، الرابعة، الخامسة، أقسم بالله

ثمانى ساعات والطريق مسدود، والأجر لا على الساعات بل على الإنجاز، الأجر الذي طلبه على إصلاح الآلة فقط .

جئت اليوم الثاني وأول ساعة، الثانية، الثالثة، الرابعة، الخامسة، السادسة، السابعة، الثامنة، والطريق مسدود، اليوم الثالث ثمانى ساعات والطريق مسدود، اليوم الرابع الطريق مسدود، الخامس الطريق مسدود، السادس .

أقسم بالله -وهو عندي صادق- ثمانية أيام، وكل يوم ثمانى ساعات، والطريق مغلق، قال لي: انتبهت أن ثمة شيئاً، فاستأذن صاحب العمل، أن آخذ إجازة يومٍ لأراجع نفسي مع الله، قال لي: جلست وبقيت أتذكر ما الكلمة التي قلتها، وفيها استكبار، فيها اعتزاز، فيها استغناء؟ قال لي: تذكرت كلمتي أنى أنا لست بحاجتك، بل أنت بحاجتي، فإن أعجبك هذا الرقم فأنا جاهز، فاستغفر الله، وكأنه تصدق، قال لي: باليوم التاسع، والله بربع ساعة، حُلَّت المشكلة.

إذا ظهر السبب بطل العجب :

أنا أضع يدي على مشكلة؛ لماذا هناك تعسير وهناك تيسير؟ لماذا هناك طلاقة لسان ولماذا هناك حبس لسان؟ لماذا في أمور هناك تناسب انسياباً براحة وأمور تتعسر؟ وصعب جداً أن يشعر الإنسان أنه محارب، أحياناً: يشعر الإنسان أن الله يحاربه، يطرق الباب مغلقاً، هذا مغلق، هذا مغلق، هذا مغلق .
فيا أيها الأخوة، أردت أن يكون هذا الدرس، حل لهذه المشكلة، لماذا أفقد ملكاتي؟ ولماذا يضاف إلى ملكاتي ملكات لا أملكها؟ لماذا أفقد شجاعتي؟ ولماذا أكون شجاعاً كأنني فارس؟ لماذا أفقد حكمتي؟ ولماذا أكون حكيماً كأنني إنسان مجرّب؟ ساعة يكون حكيم وساعة يكون غير حكيم، ساعة يكون شجاع وساعة يكون جباناً، ساعة يكون طليق اللسان، وساعة يكون عيى اللسان، العوامل؛ إذا ظهر السبب بطل العجب .

خطأ وقع فيه هذا الشخص بعد توبته، فأدبه الله :

مرّة أخ اصطّح مع الله من قريب، والإنسان إذا اصطّح مع الله في الفترة الأولى، له إن جاز التعبير شهر عسل، الإنسان يشعر بأحوال لا توصف؛ يبكي في الصلاة، يشعر بنفسه خلاف الناس جميعاً، قال لي: في أعلى درجة من درجات تألّقي مع الله، أنا اصطّحت معه من وقت قريب، وكان الحقائق كُشِفَتْ لي، ورأيت الناس في بُعد عن الله، وفي ضياع، وأنا اهتديت لله عزّ وجل، والحقيقة عرفتها، وشعرت بسعادة لا توصف، وشعرت بزخم روحي كبير، قال لي: فجأةً بدأت عيني تخطف النظر إلى الفتيات، وهذه عنده كبيرة جداً .

النتيجة: جاءني إلى البيت -كان بيتي بالعفيف- قال لي: أنا يا أستاذ أطلق بصري في الحرام، قلت له: أعوذ بالله، قال لي: والله، قلت له: تب إلى الله، قال لي: أكثر من عشرين مرّة تبت ورجعت، سبحان الله! كأن الله ضعّف مقاومته لهذا الشيء، وأصبح يبكي، أنا والله وقتها ما رأيت جواباً، الحالة نادرة، فنتب، قال لي: لا أستطيع، أنت تركت أشياء أهم من هذه بكثير، فلماذا ضعفت مقاومتك هنا؟ .

في الزيارة الثانية، حدّثني عن علاقته مع والده، فوالده إنسان ليس كما ينبغي أن يكون الإنسان، وليس إنساناً سيئاً إطلاقاً، وأبوه باع بيته، وسكّن أولاده خارج دمشق، وسكن معهم، هذه بطولة أن يكون الإنسان ساكناً بالمدينة، في أرقى أحيائها، يبيع هذا البيت، ويسكن في طرف المدينة إكراماً لأولاده، قال لي: أنا كنت أتهم والدي بالكفر والفسق، -وهذه رعونة من رعونات الشباب-، لأنه يقعد مع خالاتي مثلاً، فكنت أتهمه بأنه فاسق، فيبدو أنه شعر باعتزاز، وأنه غير أبيه، لم يكتف أن شعوره الداخلي أنه غير أبوه، بل سلّط لسانه على والديه، وانتقص من قدرهما، وانتقدهما على انحرافهما، وبالغ في ذلك، فالله عزّ وجل أدّبه، كيف أدّبه؟ ضعّف له مقاومته .

تأمل يا أخي في هذه الآية :

أيها الأخوة، والله ليس هناك آية أحس فيها أدب مع الله، وفيها عبوديّة لله، كقوله تعالى:

﴿وَالْأَصْبُ إِلَيْهِمْ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

[سورة يوسف الآية: 33]

فإذا الله عزّ وجل لم يحفظك، ولم يقو لك مقاومتك، وأعانك على غض البصر، قال تعالى:

﴿أَصْبُ إِلَيْهِمْ﴾

[سورة يوسف الآية: 33]

وإذا صبا الإنسان إليهم، كان من الجاهلين، لأنه بهذه المرأة، ضيّع من أجلها الحور العين .

أنا سأطلب منك موقف، ولكنه محرج، هل أنت غير مصدق أن في الجنة حور عين؟ الحور العين في الجنة شيء لا يوصف، معقول من إنسان يضحى بهذه السعادة الأبدية، في كل شيء بالجنة، من أجل نظرة عابرة لامرأة فاجرة، أيعقل هذا؟ .

ألم يقل أحد الصحابة لزوجته:

((اعلمي أيتها المرأة، أن في الجنة من الحور العين، ما لو أطلت إحداهن على الأرض، لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحى بك من أجلهن، أهون من أن أضحى بهن من أجلك))

أنواع الافتقار إلى الله :

أيها الأخوة, النقطة في هذا الدرس: أنك حينما تعتز باستقامتك، حينما تعتز بعلمك الشرعي، صار ذلك حجاباً عن الله عزَّ وجل، هذا الافتقار .

الحقيقة: يوم الجمعة ذكرت: أنه عندنا افتقار قهري قسري، هذا الافتقار القهري والقسري لا ينجو منه أحدٌ على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة، كلنا مفتقرون إلى الله؛ بالتنفس، بالماء، بالهواء، بالطعام، بالشراب، بالدفع، بالمأوى، بالزوجة، بالولد، بالحرفة، بالمال، مفتقرون إلى الله، أما الافتقار القهري فهذا لا ثواب له، ولا عقاب عليه، ولا يمدح صاحبه، ولا يُذم، لأنه قهري، وليس معنياً في موضوعنا. يا أيها الأخوة، الافتقار القسري والقهري لا ينجو منه أحد، كل واحد منا بحاجة إلى الهواء، وإلى الماء، وإلى الطعام، وإلى المأوى، وإلى اللباس، وإلى المال، وإلى الزوجة، وإلى الأولاد، مقهورون جميعاً . أما الافتقار الاختياري فهذا كسبي، هذا الافتقار الاختياري محصلة علمين شريفين؛ علم معرفة الله، وعلم معرفة النفس، فإن حصَّلت من هذين العلمين الشريفين قدراً كافياً، يتولَّد منهما معاً حالة افتقار اختياري .

دقق :

أيها الأخ الكريم، دقق: الافتقار الاختياري عين الغنى، الافتقار الاختياري عين القوة، الافتقار الاختياري عين العلم، الافتقار الاختياري عين التوفيق، الافتقار الاختياري عين النصر، الافتقار الاختياري عين العلو، فلذلك الناس يتفاوتون بافتقارهم .

ببدر الصحابة افتقروا، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتُمُ ادِّلَةٌ﴾

[سورة آل عمران الآية: 123]

بحنين ما افتقروا، فجمعهم الكبير كان حجاباً لهم عن الله عزَّ وجل، قالوا:

﴿لَنْ نُغَلِّبَ مِنْ قَلَةٍ﴾

قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْنًا﴾

[سورة التوبة الآية: 25]

انطلاقاً من هذا الحديث.... :

أيها الأخوة، فأنا أريد أن تترجم هذه المعلومات إلى واقع، كيف أقول لإنسان: لا بدَّ من أن نبيِّن لك هذا الشيء، قال لي: ما هو السبب؟ قلت: لأنه ثبت في الحديث.

عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

((أَنَّ صَفِيَّةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تَزُورُهُ فِي اعْتِكَافِهِ فِي الْمَسْجِدِ، فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً، ثُمَّ قَامَتْ تَنْقَلِبُ، فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهَا يَقْلِبُهَا، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بَابَ الْمَسْجِدِ عِنْدَ بَابِ أُمِّ سَلَمَةَ، مَرَّ رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَلَى رَسُولِكُمَا، إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُبَيْبٍ، فَقَالَا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَكَبَّرَ عَلَيْهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنَ الْإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَفْذَفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا))

فأنت بيّن، النبي بيّن، وانطلاقاً من هذا الموقف النبوي الشريف، أنا سأبيّن لك، القصة أساسها كذا، وكذا، وكذا، فأنت بيّن، والبيان يطرد الشيطان .

فحن نبي على قصة آلاف المواقف، نبي على تصرف نبوي شريف آلاف الاستنباطات .

الآن: كل واحد منا بعمله، في بيته، يقول لك: أنا زوج، أحياناً: تقهره زوجته لأنه قال: أنا زوج، أما إذا كان دخل إلى بيته مفتقر لله عزّ وجل، وقال: يا رب ألهمني الصواب، ثبت خطاي، ألهمني الحكمة، ألهمني أن أقول كلمة تنفع أهلي -مثلاً- الله يلهمه الصدق، يجعل له هيبه في البيت، هذه الهيبه من طاعته لله عزّ وجل .

من الآيات التي استفتحها النووي في باب تحريم الكبر والإعجاب :

أخواننا الكرام، في كتاب رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، عليه أتم الصلاة والتسليم، عُقد فيه بابٌ سمّاه المؤلف -رحمه الله تعالى- باب: تحريم الكبر والإعجاب، وكعادة الإمام النووي رحمه الله تعالى، يفتح أبواب كتابه ببعض الآيات الكريمة .

أيها الأخوة، قال تعالى:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

[سورة القصص الآية: 83]

الإنسان إذا أراد العلو، حُرّم الدار الآخرة، قال تعالى:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾

[سورة القصص الآية: 83]

كلمات دقيقة: لا يريد أن يفسد الناس، كما أنه لا يريد أن يستعلي عليهم، فثمن الجنة أن تكون متواضعاً مُصلحاً، متواضعاً في ذاتك مُصلحاً في عملك، أما الكافر فمتكبر في ذاته مُفسد في عمله، بذاته متكبر بعمله مُفسد .

ركز :

أيها الأخ الكريم, أنت دقق الآن: أي شيء تفعله من أجل انتزاع إعجاب الآخرين، من أجل أن يمدحوك، من أجل أن تستعلي عليهم, ابتعد عنه، كن متواضعاً، التواضع صفة العلماء، التواضع صفة الكرماء، صفة الخُلماء، صفة الموصولين بالله عز وجل .

أحد الأعراب, جذب النبي من ثوبه, حتى أثر على رقبته الشريفة, وقال له:

((أعطني من مال الله, فهو ليس مالك ولا مال أبيك, فقال عليه الصلاة والسلام: صدق, إنه مال الله))

فحينما تفكر في العلو والكبر، الآن: أنت دقق, كم شيء يفعله الناس من أجل أن يستعلوا؟ والله ينفقون الملايين من أجل العلو في الأرض، والله عز وجل يقول:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾

[سورة القصص الآية: 83]

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا﴾

[سورة الإسراء الآية: 37]

احفظ هذه الكلمة :

ثمة كلمة أحفظها تعجبي: من يضحك أولاً يضحك قليلاً, ويبكي كثيراً، ومن يضحك آخرًا، يضحك كثيراً وطويلاً، والدليل: قول الله عز وجل؛ أن المؤمن:

﴿وَيُنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾

[سورة الانشقاق الآية: 9]

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾

[سورة المطففين الآية: 34]

هذه الآية الثانية .

ما الذي يفسد العبادة ؟ :

الآية الثالثة, قال تعالى:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾

[سورة لقمان الآية: 18]

أي: أن العبادة يفسدها الكبر .

((الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعِظْمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَارَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، أَلْقَيْتُهُ فِي النَّارِ))

[أخرجه ابن ماجة في سننه]

متى يفتقر العبد إلى الله؟ :

أيها الأخ الكريم، فكن متواضعاً، وكن مفتقراً، لكن هذا الشيء، لا يأتي هكذا ببساطة. قبل يومين، أقمنا احتفالاً بتخرج طلاب المعهد، فالمتفوقون نالوا جوائز، وهناك طفل ما نال جائزة، لأنه مقصّر، فسأل: أين تباع الجوائز؟ قال: أشتري جائزة، وأقدمها لأهلي، فهناك أشياء لا تُباع، من أين يأتيك التواضع؟ يأتي من السعي الحثيث، من معرفة الله .

فإذا واحد عنده -تقريباً- آلة تريكو، موديل ستة وثلاثين، لون واحد، في النهار تصنع كنزة واحدة يدوية، لم ير غيرها بحياته، يقول لك: هذه أعظم آلة بالعالم، أما لو رأى آلة لموديل حديث، تعمل مئة كنزة باليوم، وشكّار، وكمبيوتر، يتواضع ساعتها، يتواضع إذا رأى العظمة، كل إنسان أفاقه ضيق تجده متكبّر، عايش في أوهام .

لماذا قال الإمام الشافعي:

((من لم يعهد منه سفرٌ، لم يعهد منه علمٌ؟))

يتحجّم الإنسان إذا عرف الله، يصير صغيراً، إذا عرف الله، يرى نفسه لا شيء، صدق القائل:

إذا كنت في كل حالٍ معي فعن حمل زادي أنا في غنى

في كثير من الأبيات، يقولها العارفون بالله:

وما لي سوى فقري إليك وسيلةً فبالافتقار إليك فقري أدفع

فإذا الإنسان افتقر إلى الله، فافتقاره إلى الله عين الغنى، وعين القوة، وهناك شواهد .

متى يسقط العبد، ومتى تظهر بطولته؟ :

سمعت وقرأت عن شواهد لا تعد ولا تحصى، إنسان يقوى ويتفوّق، يصيبه الغرور فيسقط، فالبطولة: أن تصل إلى القمة، وأن تبقى فيها .

حينما تشهد أن هذا من فضل الله عليك، فعلى قدر ما تستطيع، لا تكن حظوظك التي أكرمك الله بها حجاباً بينك وبين الله، قال تعالى:

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي

الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾

[سورة القصص الآية: 76]

طبعاً: بعد هذا, قال:

﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾

[سورة القصص الآية: 78]

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾

[سورة القصص الآية: 81]

طبعاً: هذه شواهد صارخة، أما بحياتنا اليومية في آلاف الشواهد غير الصارخة، كأن علق أمله بإنسان، فالله ألهم هذا الإنسان يتخلى عنه، لأن صار في شرك .

ما يلت نظرک :

أنت يلت نظرک رجلٌ غني متواضع، السبب: الغنى مظنة كبر، فإذا وجدت غنياً متواضع تفاعلاً، أو يلت نظرک غني متواضع، الحقيقة: الغني إذا تواضع يحبه الله عز وجل .

((أحب ثلاثاً وحبى لثلاثٍ أشد: أحب المتواضعين وحبى للغنى المتواضع أشد، أحب الكرماء وحبى للفقير الكريم أشد، أحب الطائعين وحبى للشاب الطائع أشد))

ما مراد هذا الحديث؟ :

النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح يقول:

((لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ, وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ, يَعْني: مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ, قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: إِنَّهُ يُعْجِبُنِي أَنْ يَكُونَ تَوْبِي حَسَنًا وَنَعْلِي حَسَنَةً, قَالَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْجَمَالَ, وَلَكِنَّ الْكِبَرَ مَنْ بَطَرَ الْحَقَّ وَغَمَصَ النَّاسَ))

في رواية:

((وَعَمَصَ))

وفي رواية:

((وَعَمَطَ))

أي: أن ترد الحق؛ في حكم شرعي لا تقبله، في موقف يجب أن تفعله لا تفعله، في سلوك ينبغي أن تسلكه لا تسلكه، ولو كان مدعماً بالكتاب والسنة، هذا هو الكبر، أن تستنكف أن تعبد الله، أن تستكبر أن تعبد الله.

بطر الحق: أي دفعه ورده على قائله، وعمط الناس: أي احتقارهم .

مرّة أخ توسّط لي, أن أفنع أبا بتزويج ابنته، عنده بنت تجاوزت الثالثة والثلاثين، وجاءها خاطب ممتاز، الأب متعنت لا يزوج، فذهبت له، من خمس كلمات، وجدت أن لا أمل، قلت له: النبي يقول:

((إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَرَّوْجُوهُ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

قال لي: لا أقبل، لم تعد هناك لغة مشتركة بيننا، أعرض عليك كلام النبي عليه الصلاة والسلام، الذي لا ينطق عن الهوى، فكل إنسان تعطيه آية أو حديثاً، ويرفض أن ينصاع لها، انتهى، هذا إنسان مستكبر، يرفض أن ينصاع لكلام خالق الكون .

((الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ))

أما غمط الناس، هناك نموذج أيها الأخوة والعياذ بالله، وبين النساء مستشر، فمثلاً: هي وبناتها بالأوج، أي: امرأة أخرى بالتعظيم، لا تذكر شيئاً عن فضائلها، تمدح نفسها، وتمدح من حولها، وتبالغ وتتكبر، وأي جهة أخرى بالتعظيم، هذا سلوك ظالم .

انظر إلى مدح النبي إلى الصحابة :

أيها الأخوة، كان عليه الصلاة والسلام، كل صحابي جليل يمدحه .

فعن علي بن أبي طالب قال:

((قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: رحم الله أبا بكر، زوجني ابنته))

[أخرجه الترمذي في سننه]

((وما نفعني مال في الإسلام، ما نفعني مال أبي بكر))

((ما ساعني قط))

سيدنا عمر:

((لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب))

[أخرجه الترمذي في سننه]

سيدنا أبو عبيدة:

((إن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح))

سيدنا خالد:

((سَيْفَ اللَّهِ الْمَعْمُودِ))

سيدنا حمزة:

((أسد الله))

كل صحابي أعطاه النبي حقه، ما غمط أحد، هناك أشخاص بالعكس، لا يمكن أن ينطق بكلمة مديح لإنسان، الأضواء كلها يسبّطها على ذاته، في الحلقات الدينية تجد الأضواء فقط مسلّطة على إنسان واحد، أما كل من حوله فلا شيء، بالتعظيم الكامل، هذا سلوك غير نبوي، ليس هذا من السنة، يجب أن تنزل الناس منازلهم .

فكلمة المديح للمؤمن يربو بها إيمانه، أما لغير المؤمن قد يغتر بها، لذلك النبي مرة: أثنى على من يمدح، ومرة ذمّ من يمدح، كأنه في تعارض، لا، لا يوجد تعارض، بل أنت عندك حكمة، هذا الإنسان مؤمن إذا مدحته بما فيه، ربا الإيمان في قلبه، أما إذا مدحت إنسان ضعيف الإيمان، يصدّق أنه هو فعلاً هكذا .

حديث خطير :

ويقول عليه الصلاة والسلام، في الحديث الصحيح المتفق عليه:

((لا ينظرُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطْرًا))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، ومالك في الموطأ]

فأحياناً: في سلوك فيه بطر .

احذر من أن تفعل هذا :

حدّثني أخ -والله أصدقه-، فقال لي: كنت ببلد بالخليج، لم يسمها لي-، فهناك الولايم لها دور كبير، قال لي: أقيمت وليمة، يمكن كمية اللحم التي فيها، تطعم أقل شيء خمسمئة إنسان، والمدعون عشرة أشخاص فقط، أكلوا واحد بالألف، ثم صاحب الدعوة، غسل يديه فوق الطعام، فهذا الذي رأى هذا المنظر، كاد يخرج من جلده، قال له: لا أحد يأكل بعدي، هذا بطر .

بينما يجوز في بعض البلاد، في عادات طيبة، إذا إنسان دخل لمطعم، وأكل، وزاد منه قطعة لحم، يلفّ له، ويُعطى، يأكله في البيت، هذا شيء طيب، زاد أكل، فالمطعم يلقيه في القمامة، لا، لكن المطعم لفقّه لي، وأعطاني إياه، أنا أكله مساءً هذا الطعام .
فالكبير والعياذ بالله، يحجب عن الله عزّ وجل .

((لا ينظرُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطْرًا))

يفاس عليه الشيء الكثير، كأن إنسان أسرف في صنع الطعام، ثم ألقاه في القمامة .

والحديث الذي بيّنته لكم قبل قليل، والذي رواه مسلم:

((العزُّ إزاري، والكبرياء رداي، فمن ينازعني فيه عذّبته))

[أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، والطبراني في المعجم الصغير]

انظر إلى معاملة الله إلى هذين العبدین :

أيها الأخوة، يقول عليه الصلاة والسلام:

((لا يزال الرجل يذهب بنفسه، حتى يكتب في الجبارين، فيصيبه ما أصابهم))

[أخرجه الترمذي في سننه]

أنت لاحظ نبتة مرنة، الرياح تهزّها، فإذا سكنت تستقيم، تهزّها فتستقيم، أما الشجرة العملاقة، تأتيها رياح عاصفة، فتقلعها من جذورها، فربنا عزّ وجل يحاسب المؤمن كهذه النبتة، أي بين مدّ وجزر، بينما الإنسان البعيد عن الله، يعامل كما تعامل هذه الشجرة العملاقة، إعصاراً واحد يقتلعها من جذورها، الله عزّ وجل يبطش بالمتكبر بطشاً واحدة فينهيها، يرخي له الحبل، ثم يبش به فقط، أما المؤمن فيعالجه كل يوم .

بصراحة: يا أخوان، إذا الله عزّ وجل تفضّل علينا وأكرمنا، أنه تابعنا على كل أخطائنا، هذه نعمة كبرى.

أيها الأخ الكريم، إياك أن تتألّم إذا تابعتك الله، معنى هذا: أن فيك خير، معنى هذا: في أمل كبير بالنجاة، أما إذا في انحراف وفي إمداد، هنا المشكلة .

أخرج من هذا الوهم :

أيها الأخوة، والشيء بالشيء يذكر، إذا الإنسان في عنده مشكلة، لا يظن أنها لا تُحل، هذا ظن فيه وهم. زارني أخ عقب صلاة الجمعة فقال لي: أنا أموري كلها منتظمة إلا شيء واحد: هو أنني أدخّن، قال لي: لا أستطيع أن أتركه إطلاقاً، قال لي: صار جزءاً من دمي، وإذا تركته يصير معي حالات عصبية؛ ضيق ووضع غير طبيعي، فإذا دخّنت أرتاح، قال لي: هذه لا أقدر عليها .

قلت له: والله الذي لا إله إلا هو، إنك واهم وهم كبير، وبإمكانك أن تتركه، وأن تعيش حياة رائعة، والقضية بسيطة .

نحن في لنا أخ، كان يدخّن باليوم ثلاث علب أو أربعاً، ليس هناك إنسان حوله، يصدق أنه يدع الدخان، فلما استعان بالله، تركه وانتهى الأمر، ولا يفكر أن يقترب منه، فهذا الأخ قال لي: لا يوجد إمكان . فإذا كان للواحد عنده عادات سيئة، عنده شهوات مستحكمة فيه، له صفات كبر - من نوع درسنا-، ولا

يقدر إلا أن يظهر دائماً مثل الطاووس، فلها حل، قلت له: والله أنت واهم، قال لي: كيف؟ قلت له: سأروي لك قصة سمعتها، والله قصة مؤثرة جداً، وهي تعد دليل رياضي طبعه هكذا، لا يمكن أن يغمض له جفن، إذا كان في غرفة النوافذ فيها مغلقة؛ صيفاً، شتاءً، خريفًا، ربيعًا، صقيعًا، تحت الصفر خمس درجات، لا يمكن أن يغمض له جفن، إذا كان بغرفة نوافذها مغلقة، رياضي كبير، لاعب كرة من الطراز الأول .

مرّة أجريت مباراة في فنلندا، في فنلندا أقل درجة حرارة، سُجّلت تسعة وستين تحت الصفر، عنده مباراة بهذا البلد، وفي الشتاء، والفندق خمس نجوم، ولأن هذا الفندق بهذه المنطقة الباردة جداً، لا توجد نوافذ مفتوحة إطلاقاً، النوافذ مغلقة، لا يوجد قضية فتح، لأن البللور مع إطار النافذة ثابت، لا يُفتح إطلاقاً بالفندق، فجاء ورأى الغرفة، فلا يمكن له أن ينام ، ولا يمكن أن ينام ولا يغفل، والمباراة ثاني يوم، يجب أن يكون مرتاحًا، قابل مدير الفندق وقال له: لا إمكان غير هذا، ابحث عن فندق آخر، هل أخرج الفندق من أجلك؟ البناء مصمّم ما فيه فتح .

هذا الرياضي لم يجد حلاً، جاءت فكرة شيطانية، قال: أنا أكسر هذا البللور في الليل، وأدفع ثاني يوم الغرامة، يبدو أنه أطفأ المصباح، ومسك الحذاء، ضرب، نزل البللور على الأرض، فنام نومًا مريحًا، مثل عادته، ما دام خرق النافذة وفتحت، دخل الهواء، فنام، استيقظ صباحًا، ففوجئ أنه كسر منظرًا طبيعيًا، البللور مغلق، كسر منظرًا طبيعيًا، ما كسر البللور، معنى هذا: أنه يعيش في وهم، هذه القصة نموذجية .

أربعة أحماس تشبّثك بالشيء وهم، فمن الممكن تترك الدخان بكل بساطة، ممكن تترك أي عادة سيئة، أي سهرة مختلطة، أي لقاء، إذا أنت طلبت من الله التوبة الصحيحة، يعينك الله عزّ وجل، فهذا يعيش في وهم عشرين سنة، نام نومًا مريحًا، على أساس أن النافذة مكسورة، فوجد أنه كسر منظرًا طبيعيًا، ونزل البللور، ظنّ أنها النافذة ونام .

فيا أيها الأخوة، راقب عاداتك، راقب كل تصرفاتك إذا فيها كبير، أنا لا أقدر، هذا كلام العوام: لا أقدر، لماذا لا تقدر؟ الله كلفك بالاستقامة، لو أنك لا تستطيع ما كان كلفك، صار التكليف ليس له معنى، كأن الله كلفك ما لا تستطيع، لا، إنك تقدر، كل إنسان يقول: لا أقدر، فهو إنسان جاهل، يرد قوله تعالى:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾

[سورة البقرة الآية: 286]

أخواننا الكرام، أنهي هذا الدرس بكلمة: هل تصدِّق: أن ثمن الجنة هو كلمة واحدة؟ ما هي الكلمة؟ قال تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾

[سورة الشمس الآية: 9-10]

اقرأ القرآن، جاءت ثلاث آيات أو أربع، قال تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾

[سورة الأعلى الآية: 14-15]

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾

[سورة الشمس الآية: 9]

بل إن حمل الأمانة في الأصل: هو تزكية النفس، فإذا أنت نقيت نفسك من الكبر، والعجب، والإصرار، والغرور، والاستعلاء، وصار قلبك سليم، معنى هذا: أنك دفعت ثمن الجنة، قال تعالى:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

[سورة الشعراء الآية: 88-89]

وكلمًا ارتقيت عند الله كان قلبك سليمًا، وكلما ابتعدت عن الله امتلأ القلب بالأمراض .

فأنا دائماً أقول: تجد الشخص لئيمًا، متكبرًا، كذابًا، محتالًا، منافقًا، فما هذا النفاق، والاحتيال، والكذب؟ هذه أعراض مرض واحد: هو الإغراض، احفظها، هذه أعراض الإغراض؛ تعرض، تظهر كل المشكلات، تقبل، تزول كل العيوب والأمراض .

فنحن علاجنا أن نكون مع الله، سلامتنا في الصلح مع الله، سعادتنا في الإقبال على الله، أمننا في الاعتماد على الله، مستقبلنا في محبة الله، هذا هو الدين، الدين هو الله، أن تقبل عليه، وأن تحبه، وأن تطيعه، وأن تعظم شعائره، وأن تعظم تشريعه، وأن تجل المؤمنين، هذا هو الدين .

فيا أيها الأخوة، هذا الباب الكبير في رياض الصالحين مهم جداً .

((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ))